المحاضرة الثالثة: المكتبات في الجزائر خلال العهد العثماني

كانت الجزائر خلال العهد العثماني في مقدمة البلدان الكثيرة الكتب والمكاتب، حيث أن الكتب في الجزائر كانت تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ، أو تجلب من الأندلس ومصر وإسطنبول والحجاز، فقد وجد عدد كبير من المكتبات قبل مجيء العثمانيين، فكانت تلمسان عاصمة علمية مزدهرة، بلغت فيها صناعة الكتاب تأليفا ونسخا وجمعا درجة عالية، وما يقال عن مدينة تلمسان يقال عن مدينة بجاية وقسنطينة، كما كانت مصادر الكتب متنوعة، من كتب الأندلسيين، ومن البلدان المغاربية الأخرى، حيث كانت في أعماق الصحراء مكتبة غنية خلال القرن السابع عشر ميلادي من الشيخ محمد بن إسماعيل بها ألف وخمسمائة كتاب، وكانت الكتب تنتقل إلى الحجاز، والعلماء يذهبون حتى إلى الأماكن البعيدة لجلب الكتب المتنوعة[1].

وتعتبر تركيا والمغرب من أهم البلدان التي اقتنى منه الجزائريون المخطوطات، وما ميزها الجمال في الشكل والتجليد، حيث كان القضاة والدراويش والعلماء عند المجيء بهم إلى الجزائر، اصطحبوا معهم مكتباتهم وأوراقهم و وثائقهم، ومن أهم ما جاؤوا به كتب الفقه الحنفي، ونسخ من صحيح البخاري، وكتب الأدعية والأذكار الصادرة عن الطرق الصوفية[2].

اختلفت طرق اقتناء الكتب، حيث أن الحارصين على جمع الكتب كانوا ينسخون الكتب بأنفسهم، أو ينسخها غيرهم كتلامذتهم أو كتابهم، وقد انتشرت حركة النسخ والاستنساخ في الجزائر، حيث كان لها اختصاصيون مشهورين، فقد قسنطينة مثلا اشتهرت بالنساخين والخطاطين، ومنهم أبو عبد الله بن العطار من أسرة شهيرة تولت الوظائف الرسمية في العهد العثماني[3].

كان النسخ يتم بالخط الأندلسي، الذي سبق الخطوط الأخرى في المغرب الإسلامي، فضلا عن الخط العثماني، الذي جيء به إلى الجزائر، وأن اهتمام العمال

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.286- 287.

[2] نفسه، ص.288.

[3] أشرف صالح، **مرجع سابق**، ص.72.

كان بسبب التلاقح العلمي، ولم تكن للسلطة الحاكمة يد فيه، بل هو عمل إسلامي فردي[1].

ومع سيادة العلوم الدينية في العهد العثماني، كان محتوى المكتبات كتب: التفاسير والأحاديث النبوية، وكذا الفقه والأصول، والتوحيد والعلوم اللغوية والعقلية، وحتى الأدب والنحو والصرف واللغة والبلاغة والعروض، أما التاريخ والجغرافيا والفلسفة، فكانت قليلة، وكتب الحساب والطب والفلك أقل من القليل[2].

وقد كثرت المخطوطات في العهد العثماني، وكانت مكتباتها منقسمة إلى مكتبات عامة وخاصة، وهي تضم مختلف المخطوطات في شتى الفنون، إذ كان يلجأ إليها الأساتذة والطلبة من جميع النواحي للمطالبة للمطالعة، فالمكتبات العامة كانت وقفا على المساجد والمدارس والزوايا، أما الخاصة، فكانت تنتشر عبر الوطن، حيث العائلات العلمية[3] ، وحيث الأعيان الذين لديهم غيرة على الكتب ونسخها[4].

من أشهر المكتبات التي كانت موجودة بالجزائر خلال العهد العثماني، نذكر المكتبة الضخمة بزاوية سيدي الهواري بوهران، ومكتبة عبد الرحمان باش تارزي بقسنطينة، إذ ذكر التقرير الفرنسي أن بها ما يزيد عن خمسمائة مخطوط أغلبها في الفقه والدين[5]، وقد ذكر الكفيف في رسالته إلى عبد الرحمان الثعالبي عنايته بمكتبته وتدبير أمرها خوفا عليها من النهب والسرقة [6]، كما كانت لعائلة الفكون بمدينة قسنطينة مكتبة ضخمة وغنية بنفائس المخطوطات، وكان اعتماد عبد الكريم الفكون(الحفيد) في ثقافته الدينية والصوفية والأدبية عليها كبيرا[7].

والملاحظ على المخطوطات التي كانت بهذه المكتبات أن مصيرها كان سيئا، حيث ضاع الكثير منها نتيجة الإهمال والنهب والتهريب، والحروب التي وقعت بين

---

[1] نوال سقاي **«الأوضاع الاجتماعية والثقافية في مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني»** مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر(الجزائر)، 2008م، ص.44.

[2] أشرف صالح، **مرجع سابق**، ص.72.

[4] نفسه، ص.72.

[5] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.287.

[6] سعد الله، **أبحاث وآراء**، ج.1، ص.208.

[7] الفكون، **منشور الهداية**، ص.11.

الجزائريين والعثمانيين، أو مع الأجانب، ومن ذلك مكتبة الشيخ أبو راس، وأحمد بن سحنون عندما تعرضت مدينة الجزائر للقصف من أسطول الدول الأوروبية، وعند إهمال مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة، سمح للعلماء بأخذ الكتب إلى بيوتهم وبيع بعضها إلى خارج الجزائر، حيث وجد عند الشيخ (محمد بن ميمون) أربعين كتابا من مكتبة هذا الجامع، إضافة إلى ذلك أصحاب المكتبات الذين كانوا يوصون بحمل مكتباتهم إلى الخارج بعد وفاتهم[1].

وما يقال عن المكتبات الأخرى يقال عن المكتبات الريفية، حيث كانت لها أهمية في أنحاء البلاد، كمكتبة ميزاب في بني يزقن(غرداية) التي حافظ عليها أصحابها، كعائلة التميمي وأطفيش، وكانت الزاوية البكرية وقصر ملوكة مركزا هاما لحركة الكتاب في الجزائر الغربية والجنوبية، كما هو الحال في مكتبة زواوة و ورقلة وبجاية والخنقة، وهذا كله يدل على وفرة الكتب في الجزائر حتى في المناطق النائية، فقد حافظ الشعب على ذلك القدر من المكتبات، لأن هذه الأخيرة ما هي إلا وسيلة لنشر التعليم، وشحن أذهان العلماء والمدرسين[2].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.294-300.

[2] نفسه، ص ص.309-310.